1. قصيدة النثر

إنّ ظهور قصيدة النثر في الأدب العربي الحديث وتبلورها فيه يرجع بنا الى الآداب الغربية بشكل عام ، والى الآدب الفرنسي بشكل خاص حيث أرضية الولادة الحقيقية لها ونموها ونشأتها. فقد مرّت قصيدة النثر في الغرب حتى تبلورها في فرنسا على يد الشاعر (شارل بودلير 1821 – 1867) ، بارهاصات ومحاولات متعددة ، وثمة من يؤصل هذه الارهاصات ويرجع جذورها الى أوائل القرن الثالث الميلادي ، حيث عرف شاعر اسطوري بأسم أوسيان (Ossian) ألف قصائد قصيرة انمازت بالروح الشفيفة والحكمة المأثورة ، ولا يعرف في التاريخ الأدبي شيء عن هذا الشاعر الذي تنسب إليه تلك القصائد ، وقد جمع الشاعر (جيمس ماكفرسون 1736 – 1796) وعلى الرغم من ذلك

فإن الدارسين الإنكليز من رأى أنّ (ماكفرسون) قد أضاف اضافات كثيرة على قصائد (أوسيان) بعد ترجمته.

أما في الأدب الفرنسي فقد أفرزت التغييرات التي طرأت عليه في القرن الثامن عشر من حيث انتاجه للنثر الشعري أول طابع للتمرد على القوانين القائمة والطغيان الشكلي الذي نمت عليه قصيدة النثر.

وقد تمثلت هذه الجهود في أعمال (تيلماك) الذي سعى نحو التحرر من قالب النظم، كذلك في الترجمات التي بلورت فكرة قصيدة النثر عبر اثباتها امكان وجود الشعر خارج أطر النظم التقليدية. وتمثلت في محاولات (شاتوبريان) التي توجهت نحو جعل النثر أداة شعرية جديدة ذات انسجامات غير مسموعة بعد ، كما توجه اليه الرومانتيكيون في بداية القرن التاسع عشر وذلك في ثورتهم على شكل الشعر الموروث ولغته التي أدت فيما أدت الى تحطيم أطر الشعر.

وبرزت في المانيا منذ بداية القرن التاسع عشر جهود ملحوظة في كتابة هذا النمط على يد (كيسنر ونوفاليس وستيفان ، وغيرهم ..) غير أنّ هذه الجهود ظلت كلها تقدم قصيدة النثر مشروعاً واعداً. وبذلك فأن قصيدة النثر لن تتبلور التبلور الحقيقي إلا على يد الشاعر الفرنسي (شارل بودلير).

لقد وقف (بودلير) على التجارب السابقة عليه في هذا المضمار وتأثر بها ، بل ترجم لها أيضاً ، فقد تأثر بالشاعر الانكليزي (ديكوينسي) في اعترافاته ونقل أغلب قصائدها الى اللغة الفرنسية وضمها في كتابه (الجنائن المعلقة الافيون – الحشيش) الذي صدر عام 1860 والذي جاء بمثابة النسخة الفرنسية من (الاعترافات) ، كما تأثر

(بودلير) بجهود (أدكار ألن بو) في النمط ، فقد كان يرى بودلير في قصيدة النثر شكلاً أكثر حرية ، وأكثر انفتاحاً.

إنّ ما قدمه (بودلير) في مجال قصيدة النثر كان تجربة خصبة إتسمت بقيم ابداعية ثرة استطاعت أن تؤصل مبادئ نظرية من الممكن إقامة النمط عليها ، وستظل ملامح تجربة (بودلير) شاخصة في نتاج جميع الشعراء الكبار الذين يعقبونه ولاسيما دعاة المذهب الرمزي من الشعراء أمثال : رامبو ، فيرلين ، ومالارميه .. وغيرهم ، وقد أصابت (سوزان بيرنار) مؤلفة كتاب (قصيدة النثر من بودلير الى أيامنا) ، في عد الشاعر (بودلير) ، هو الذي تأصلت عنده أبعاد قصيدة النثر الفنية وفي البداية الحقيقية للنمط.

إنّ القصيدة العربية لم تستطع الخروج من التقعيد الخليلي إلا مؤخراً ، وذلك لأنها كانت تنحو نحو طبيعة القافية ، وكان لهذا النظام دوره الفعال في تجسيد العملية الايصالية وتقويمها نحو التلقي السماعي. ولما كانت الممارسة الشعرية القديمة في قدر كبير منها استجابة لنظم حياتية بسيطة أكثر مما كانت تجسيداً للأفكار والرؤى والمفاهيم والقيم. الى جانب جهود أصحاب الشعر المرسل وشعر التفعيلة الجديد سبقت ظهور قصيدة النثر ، فقد ظهرت في الساحة الشعرية العربية أنماط مجاورة – وليست مطلقة – في شروطها وخصائصها لقصيدة النثر شاركت في خلق تلك الارض التي استقرت عليها هذه الانماط هي (الشعر المنثور) ، و (النثر المركز) حسب تسمية حسين مردان و (الشعر الحر) و (النثر الشعري) الذي ينتمي أساساً الى الأسس النظرية للنثر.

ظهر الشعر المنثور ظهوراً حقيقياً على يد (أمين الريحاني 1846 – 1941) في بداية القرن العشرين عندما بدأ ينشر أول جهد له عام 1905 في مجلة الهلال المصرية

بعنوان (الحياة والموت). وقد تأثر (الريحاني) في محاولاته بشـعراء الغرب وصـرح بذلك نفسه وخص منهم ، شكسبير ووالت وايتمان.

ينماز الشـعر المنثور عند الريحاني باطلاقه عنان الخيال ولغته الشـفيفه وبسـاطة الفكرة ووحدتها داخل السطر الشعري ، إلا أنه يعمد الفواصل الداخلية في أحيان متعددة، وربما كان ذلك محاولة منه لتعريض غياب الوزن والقافية فيه ، ونقدم مقطعاً من قصـيدة الريحاني بعنوان (غصن الورد) ويعد مثالاً لهذا النمط :

ها قد بدت على شفتيه لفظة الحياة
فأثمرت الكلمة التي تساقطت عرقاً في أناملي وجبيني
في فمه لؤلؤة صغيرة ملفوفة بلفافة ذهبية
غداً تستحيل لفافةً لازوردية وتبدو زمردة نحيفة ندية
وبعد غد تستحيل الزمردة صدفة خضراء
في قلبها بحور من الورد لا ترى
وأجيال من الحياة لا تعد

ونسـتطيع أن نذكر من بين اولئك الذين سـعوا الى الشـعر المنثور (جبران خليل جبران، أمين مشـرق ، خليل مطران ، محمد لطفي جمعة ، توفيق مفرج ، رشـيد نخلة ، محمد السباعي ، محمد كامل حجاج ، مراد ميخائيل ، حبيب سلامة).

كان لظهور مجلة (الأديب) سـنة 1941م لصـاحبها (البيراديب) تقديماً لدفقة مميزة لمسيرة هذا الشـعر المنثور ، فقد تحولت الى مجال رحب لاحتضـان تجارب اصـحابها ،

وقد وجد الشعراء والقراء العرب في مجلة الأديب منبراً يبشر بنوع من الشعر المنثور ليس بعيداً عن أتجاه الريحاني.

لقد استطاعت مجلة الأديب أن تقدم (الشعر المنثور) تقديماً جريئاً ولم تقف عليه طرحاً خجلاً وقلقاً ، وتبقى فضيلة أصحاب النمط ، أنهم كسروا حاجز الشعرية العربية الموروثة على وفق جعل الأثر والاحتكام اليه مقياساً لمعرفة الشعر وليس استناداً الى القوالب المسبقة ، فتبلورت لديهم فكرة وجود القصيدة خارج الوزن والقافية.

وفي بداية الخمسينيات ظهر نمط شعري آخر في مسيرة الأنماط الخارجة على الأوزان الخليلية وذلك على يد الشاعر العراقي (حسين مردان 1927 – 1972م) وقرأ مردان بين ما قرأه ترجمة لمجموعة (أزهار الشر) لـ (بودلير) ذلك الشاعر الذي نضجت على يديه قصيدة النثر الفرنسية واتصلت عنده أبعادها الفنية.

أستمر حسين مردان في كتابة هذا النمط حتى وفاته ، فضلاً عن جهود أخرى وجدت من الصحف والمجلات طريقها الى النشر ونقتطف مقطوعة من جهده (العودة الى هي) :

أنت هنا فوق الصخر

فاذهب

فلم يزل في أعماق الغابات المظلمة

كيف لم يكتشف بعد

هناك تستطيع أن تخلع قناعك

وتفهم لغة الصمت

إلا أنّ الغريب في الأمر أنّ حسين مردان سمى نمطه بـ (النثر المركز) بدلاً من أي تسمية أخرى تصله بالشعر ، وربما كان ذلك تحفظاً من موقف نقدي مناوئ ، أو لعله فضل هذه التسمية كي يكون عمله مميزاً ومن طراز خاص ينسبه لنفسه. كما لم يسمه بالشعر المنثور – ربما – لإحساسه بتمايز نمطه عنه ولم يسمه (قصيدة نثر) وربما ذلك بسبب عدم وصول التسمية مع ترجمان نتاج بودلير ولعله لم يسمع بها إلا متأخراً – أي بعد تسميته – ، فقد ترجم المصطلح الى العربية – بشكله الدقيق – والوارد الينا لأول مرة عام 1960 مع مقالة أدونيس (في قصيدة النثر).

لقد بين (أدونيس) أنّ قصيدة النثر لها شكل خاص فيها فهي كيان مغلق محايث مكثف بذاته مبني على علاقات داخلية منظمة ومتماسكة ، ومتوازنة ، وكل ذلك يتم في ضوء الوعي الذي ينظم التجربة الشعرية ويرسم أبعادها الفنية ويوجهها. أنّ (أدونيس) و (يوسف الخال) ومن ثم (أنسي الحاج) أهم الأسماء ممن دعوا الى كتابة قصيدة النثر وتبنيها نمطاً شعرياً ، وأبرزها ضمن تجمع مجلة شعر.

لذا يمكن القول : قصيدة النثر نص مفتوح عابر للأنواع كما يصفها عز الدين المناصرة في كتابه الجديد ، (اشكاليات قصيدة النثر) ولعله الكتاب الأول الذي يتعاطى هذه المسألة من جوانب نظرية وتطبيقية ومحاكماتية ، فضلاً عن ذلك أشار (المناصرة) معدداً بعض المصطلحات التي أطلقت على هذا الجنس الأدبي في فترات تنظيرية مختلفة مثل : الشعر المنثور ، النثر الفني ، الخاطرة الشعرية ، النص المفتوح ، الشعر بالنثر ، النثر بالشعر ، النثيرة ، النثر الشعري .. وغيرها.

ولعل مقالة أدونيس سنة 1960 من قصيدة النثر أول مقالة نقدية واضحة المعالم عن خصائص قصيدة النثر على أنه الخصائص التي طرحها أدونيس هو نفس الخصائص التي طرحتها سوزان برنار بعد أدونيس تظهر مقدمة أنسي الحاج في مجموعته ((لـن)) 1960م وفيها تماثل كبير مع ما طرحه أدونيس في مقالته ويتبعهما في ذلك (بول شاوول) الذي يرى أن مسألة قصيدة النثر قد حسمت منذ أن كتبها توفيق صايغ عام 1947م. لقد اصبحت قصيدة النثر جنساً شرعياً في الوطن العربي. بحكم وجودها الواقعي.

لقد رسخت موجة الروّاد وموجة الستينيات والسبعينيات قصيدة النثر بأشكالها المختلفة لتواصل موجة الثمانينيات اشباع حركة قصيدة النثر لكن الانفجار الكبير حدث منذ أوائل التسعينيات فتحولت قصيدة النثر نحو السيطرة شبه التامة على وسائل الاعلام في ظل ثقافة العولمة والتشظي الكبير فبعد أن كانت مركزية قصيدة النثر تدور في لبنان، فلسطين ، سوريا ، العراق ، أخذت تنتشر مع بداية التسعينيات لتشمل الوطن العربي كمصر والمغرب العربي.

كان ظهور مجلة (الكلمة) عام 1968 في العراق ، لصاحبها حميد المطبعي اثراءً آخر للتجارب ومنبراً أخر لتقديم معطيات جديدة وأسماء أخرى في قصيدة النثر. فقد كانت المجلة تدعو الشعراء للكتابة فيها وتحثهم ؛ لذلك بكل اندفاع وحماس.

وكانت الجهود ترتقي المجلة ، وتلتمع بأسماء مثل : سركون بولص ، وصلاح فضل ، وفاضل العزاوي ، وحميد المطبعي ، وعبد الرحمن مجيد الربيعي ، ومؤيد الراوي، وموسى كريدي ، ونزار عباس ، .. وغيرهم.

لقد استطاعت تجارب هؤلاء أن تقطع سبيلها وتتجلى في قيمتها الفنية بين بقية التجارب ، لتأخذ مبكراً ناصية ريادة قصيدة النثر في الوطن العربي ، فضلاً عن ذلك كان لجهود (سليم بركات) في تجاربه الثره التي برزت منذ نهاية الستينيات وبداية السبعينيات في سوريا. وظل نتاج بركات العزيز والثر فنياً في قصيدة النثر متميزاً ، وخطوة أكثر جرأة في تقديمها قصيدة النثر نمطاً شعرياً نحو معالم أرحب ، ومثالاً مضيئاً لما من الممكن أن نغتني به.